Leseprobe - Ines Geipels Buch

إينس جايبل

منطقة نزاع

أخي والشرق والكراهية

ريجنسبورج 2019

هذا مقتطف مترجم من كتاب:

Ines Geipel

Umkämpfte Zone

Mein Bruder, der Osten und der Hass

Klett-Cotta, Regensburg 2019

المحتويات

9 بحركة بطيئة
23 الأدميرال الصغير
33 خدمة العجائز
49 في الفراغ
75 لا شيء ينمو
93 صور الأب
111 الدمى تذهب دائماً
125 بلد في بلد
143 ثقوب زمنية
161 غريزة القصة
177 زفير
197 عالم المحرمات
215 أغشية الوعي
235 وحدة الفناء
253 الشرق كحقل تجارب

269 شكر وتقدير
271 المصادر والمراجع

كريستال

ثلوج تبدو لا نهائية، لكثرتها، ولأنها تزداد بمرور الوقت بثلوج جديدة. أقف هناك، عند النافذة، وانظر إلى السماء. كيف أن ندائف الثلج تسقط وقت الشفق. كيف أن واحدة منها تهادت مترنحة، مضطربة، ثم انسابت في أخرى وامتزجت بها، وكونتا معاً شكلاً جديداً خاصاً بهما. يفتح أخي الصغير الباب بقوة: نصف ساعة أخرى، ثم يتوقف الثلج، ثم يبرد الجو مرة أخرى بدرجة كافية فيبدأ الثلج في التساقط من جديد.

كنت أرى روبي وهو يقف أمامي، متدثراً بملابسه مثل أحد الإسكيمو، في يمينه دلو الماء البارد وفي اليسار زَلّاقته. كان في السادسة من عمره، أما أنا ففي الثانية عشر من عمري. كنا في عطلة الشتاء، شهر فبراير من سنة 1973. كنا في انتظار البرودة. لتسلق الدرج الطويل، حتى أعلى الطريق، المنحدر مغطى بالجليد، لا بد من تهيئة التل، وربط زلاجاتنا. "في هذا المكان هناك، نحن قادمون!". هذه هي منطقتنا. شارع العشرين، منطقة الأيل الأبيض بمدينة دريسدن.

وفي وقت لاحق، سحب روبي وشاحه الملفوف حول عنقه وأعطاه لي. إنه يتعرق بشدة. إنه سعيد بالفعل. وهكذا نسارع صاعدين في الشارع مراراً وتكراراً. بصمت يضع يده في يدي. يتصاعد البخار من أفواهنا. ضوء شاحب يصدر من مصابيح الشوارع، الليلة الجليدية الصافية، لمعان الثلج الأبيض المتلألأ، ودبيب وقع خطانا.

ولكن قبل كل هذا وأهم منه يده الصغيرة الدافئة.

حركة بطيئة

الوجود هناك. يده اليمنى. لم يعد أخي يستطيع تحريك شيئاً غيرها. السابع من ديسمبر سنة 2017. أجلس إلى جوار سريره. مركز الرعاية بمؤسسة سانت جوزيف في دريسدن. روبي لديه ورم أرومي دبقي في الدماغ، المرحلة الرابعة. "ورم هيرندورف" كما قال عند إلقاء التحية. في شهر أبريل كانت أول عملية، ثم المراجعة خلال فصل الصيف، وفي أواخر نوفمبر كانت العملية الثانية. جلطة دموية في المخ قبل ثلاثة أيام من السكتة الدماغية. لا يبدو الأمر مبشراً للغاية، كما قال. فرصة صفرية منعدمة. جميل أنكِ موجودة هنا.

بعد ظهر أحد الأيام. وروبي الذي يريد أن يتذكر. لمدة ست ساعات. هل هذا كثير؟ أقصد، هل هذا كثير من الوقت؟ يقبض على يدي ويسحبها نحوه ويضعها على صدره. يجب أن تبقى هنا.

- هل تراني؟ سألني بهدوء.
- نعم، لماذا تسأل؟
- لأنني أراك أثنتان. الورم. هذا الشيء يدفع عينيّ بعيداً. لكن اسمعيني، لدي شيء يجب أن أخبرك به.

ابحث في وجهه: الندبة الكبيرة على صدغه الأيمن، الجلد المنهك، شفتيه. كيف تسقط الكلمات دائماً، من هناك فيما بين العليا والسفلى، سريعة، بطيئة، خافتة، متلعثمة. أنا لا افهم شيئاً على الإطلاق. كما لو أن حيوانًا عملاقًا قد اجتاحني فجأة، كما لو أن شخصاً ما قد غرس سكينة ثلج في جمجمتي. روبي، ما هذا؟ ماذا حدث؟ لماذا لم تتصل بي؟ لماذا تأخرت هكذا؟ لماذا بداية -؟ هناك الكثير لنسأل عنه. لكني لم أسأل شيئاً، اكتفيت فقط بالتحديق على فمه، وعلى الكلمات التي تخرج منه مثل سمكة فضية، هكذا افكر، تغطس وتهرب بعيداً راغبة في الابتعاد إلى حيث الظلام الدامس.

- كنا بالفعل شباب "بوبر"[1]، يحكي وهو ينظر من النافذة. هل تعرفي ماذا يعني هذا؟
- بخوف، لا.
- كنت في الثامنة عشرة من عمري، ارتدي بدلة بيضاء. فصلتها لنفسي خصيصاً. كانت رائعة حقا. وبالتالي كنا نشق القرى والأحياء، وفي المراقص نباغت الفتيات. الأصحاب وأنا.
- ما هو البوبر؟
- ليس "بلوزي"[2].
- وهذا يعني لا لصندل المسيح.
- بالضبط. لا يوجد شعر طويل، أو ناعم، ولا توجد إشارة - سلام، ولكن أعناق وأقْفِية حليقة، وتسريحات بمجفف الشعر، وخصلات شقراء. أجل، فقط الأشياء الباهظة الثمن للغاية، وموسيقانا كذلك.
- أي نوع من الموسيقى؟
- ذا كيور، وبرنس، ومايكل جاكسون.
- برنس، منتصف الثمانينات في ألمانيا الشرقية؟
- طبعاً، وماذا تظني إذن؟
- وماذا يفعل أي بوبر؟
- يقف مع المجموعة، يستمع إلى الموسيقى، ويستمتع.

كان روبي يرتعش قليلاً. ربما يعاني من الحمى. لابد وأن هناك خطأ ما، على ما اظن. شيء ما سار هنا بشكل خاطئ، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، شيء ما ليس صحيحاً بالتأكيد. لكن لابد وأن شخصاً ما سيأتي حالاً ليصحح ذلك الخطأ. عذراً، يجب أن أقول، أن هذا لا يمكن أن يستمر أكثر من هذا. لا بد وأن الفلاشة، حامل البيانات السريع، تم توصيلها بشكل خاطئ، سنصلح هذا الآن. نظرت باتجاه الباب. لا أحد هناك. ما الذي يحدث هنا؟ من كان يظن هذا؟ ماذا يفعل أخي في هذا السرير؟ هو بالتأكيد سيهدأ من روعي،

---

[1] "البوبر" (Popper) موضة شبابية انتشرت في ألمانيا الثمانينات بشطريها (المترجم).

[2] أي ليس محباً لموسيقى البلوز الحزينة (المترجم).

وسيضغط يدي كما لو كانت بطة بلاستيكية. العديد من كرات عيد الميلاد متناثرة من حوله. النجوم والقلوب الصغيرة وسلسلة طويلة من الأضواء خلف رأسه.

- الوطن هو كل ذلك، منطقة لوساتيا العليا، أومأ برأسه. أنت تعرفي ما حدث للهيرنهوتيين[3]؟
- لا أعرف. غير ممكن الآن.
- حسناً، فيما يخص الهيرنهوتيين فالأمر يسير هكذا: الآباء يتنقلون عبر العالم، والأطفال يبقون وراءهم ويعيشون في مدرسة داخلية. وعلى الضوء في البيت أن يقول لهم: سنصل ونصطحبكم. فقط هُنَيْهَة صغيرة، وكل شيء سيكون على ما يرام.
- هل كانت الأم هناك؟
- لا أعلم. هل معكِ شيئاً من التوت البري؟
- توت بري؟
- نعم توت بري طازج. فهو جيد ضد مرض السرطان.

يا لها من ظهيرة هادئة. وكم كان العالم سهلاً فيما مضى. كم كانت السذاجة والبراءة شيئاً طبيعياً تماماً. أضع رأسي على صدر روبي. ينبغي أن يبقى هناك، هادئًا ولفترة طويلة حتى يعاود العالم جريانه، وحتى يصبح كل شيء على ما يرام مرة أخرى.

- هل هذا جيد؟ سألته.
- نعم، هذا جيد.
- هل تتألم؟
- لا. لا شيء بالمرة. في داخلي كمياء أكثر مما فيه من الدم.
- جائع؟
- هل معك شيئاً الآن. ولكن أخبريني.
- نعم.

---

[3] جماعة بروتستانتية تأسست سنة 1722 للمهجرين من مورافيا التشيكية إلى سكسونيا الألمانية لذا يسمون في الغالب بالمورافيين (المترجم).

- وماذا عندما تتحول الرحلة للاتجاه الآخر؟ سيكون الأمر ولا شك مخيفاً جداً.
- نعم.
- أنا خائف.
- نعم.
- أخشى أن أفقد وعيي. هل ستكونين هنا؟
- أنا هنا، وسأبقى هنا.

رأسي يعود إلى مكانه السابق، كما هي عادتنا القديمة. طالما أنه على صدر روبي، فلا يمكن أن يحدث شيء هنا. هل هذا ما أظنه؟ ولكن لماذا اشعر بالأمر بهذه الطريقة؟ سكين الثلج ينغرس في جمجمتي باستمرار. ماذا ينوي؟ في الخارج أصبح الظلام دامساً. كما لو أن فترة الظهيرة كبسولة زمنية: تسبح مبتعدة عن كل شيء. فقط نحن الإثنين بمفردنا. فقط أخ وأخته. فقط روبي وأنا. ولكن ما هذا الذي يحدث هنا؟ الكثير من الأشياء كان يمكن تخيلها إلا هذا على ما أعتقد. أن نكون هنا فأمر غير واقعي بالمرة، وغير حقيقي. ولكن كيف هو الأمر بالنسبة إليه؟ هل هناك لحظة ما يعرف فيها المرء؟ وتكون لدى المرء فيها الشجاعة ليقول لنفسه أن الرحلة غيرت اتجاهها وبدأت تسير في الاتجاه الآخر؟ هل يحدث هذا في يوم معين، وفي ساعة محددة، ولحظة مؤكدة؟ ثم ماذا، ماذا بعد؟

انجراف قاري. كم تبدو الكلمات صغيرة مرة واحدة. كما لو أنها تزمع الانزواء، والانكماش، والانكفاء حتى تبدو قليلاً وكأنها استيك مطاطي. الصمت من حولنا، لا أصوات ولا خطوات، ولا صَفْق للأبواب. وسط هذا الصمت سألني روبي:

- هل ما زلت تذكرين؟
- ماذا؟
- عندما اتصلتِ بي كي نلتقي في محطة درسدن المركزية. "تعال غداً إلى حيث القطار الليلي الذاهب إلى بودابست، الرصيف رقم عشرة".

فقط قلتِ هذا وأغلقتِ الخط على الفور. اليوم التالي كان 31 أغسطس من سنة 1989. هذا التاريخ أعرفه جيداً، لم أنسه وعلى استعداد دائم للإخبار به. وقفنا على الرصيف. لم تتكلمي، بالكاد قلتِ شيئاً ما. فقط أردتِ المغادرة.

- كان يجب عليّ.
- أنت أردت المغادرة فقط، وقد فكرت: لماذا يمكنها فعل ذلك؟ لماذا يجب أن تكون هي تحديداً في الغرب؟ هناك، حيث لن نوجد معاً بعد الآن؟
- كان يجب عليّ.
- وضعتِ مفتاح شقتك في يدي. وألححت على محصل التذاكر مستعجلة.
- أوصد باب المقصورة. وقفتَ أنتَ هناك، وحيداً على الرصيف، ولم تلوح قط. ولا حتى بإيماءة صغيرة. "اعتني بنفسك جيداً يا أختي"، قلت هذا. ثم تتبعت القطار على الدراجة النارية طوال الليل. هذا على كل حال ما حكيته أنت.
- حتى الحدود، حتى مدينة باد شانداو. لم يكن الأمر بيدي. لم أكن لأفعل غير هذا.

نظر روبي إلى السقف. صمت كلانا. وبعد فترة قال:

- هنا يرقد المرء كما لو كان في عين الإعصار.
- ماذا تقصد بهذا؟
- طوال فصل الصيف قمت برقمنة الصور. طفولتنا، منطقة الأيل الأبيض، حمامات الزنك، لويزنهوف. كل ليلة أجلس هنا، في أفكاري، في القطار واسافر إلى زمن آخر. الدراسة، السفريات، الأسرة، الأطفال.

لديه آلاف الصور في رأسه، على ما أعتقد. ذهب مرة أخرى عبر كل شيء وقال وداعاً.

- ألا تريدين قط أن تعرفي ما اكتشفته في الصور؟ قال بإصرار.

ابتسمنا لبعضنا. حان الوقت لقصص روبي المفضلة. أخي لديه تعاطف مع الخاسرين، في الواقع مع نفسه كخاسر. وهذا هو موضوعه المفضل: كيف أنه وأصدقاؤه، بعد فترة وجيزة من سقوط جدار برلين، استقلوا دراجاتهم من مدينة درسدن عازمين الذهاب إلى اسكتلندا، وفي اليوم الأول وجد نفسه وسط عاصفة رعدية عنيفة، وقد وجدوه تحت جسر الطريق السريع، بعد أن تركه الآخرون بمفرده، كانت بطاقة الهوية قد ضاعت ولم يكن لديه خيار آخر غير العودة أدراجه. كيف عاد إلى المنزل خلال فترة تجنيده على أيل أبيض، ولكنه اكتشف أنه لم يعد لديه منزل بعد الآن. فقط ورقة على الباب تقول أنه يجب عليه أن يذهب إلى جدته. هناك كانت توجد أريكة. كم طافت به في الليلة الأولى وهو على الأريكة مئات من حشرات العُثْة. وفي صباح اليوم التالي فر ببساطة من منزل جدته إلى شقة محتلة في المدينة الجديدة بدرسدن.

قصص أعرفها كلها. صور تغطي على صور أخرى. ضحك روبي لفترة وجيزة. مقلتا عينيه جاحظتان. اليد اليمنى تبدو كما لو أنها تجدف في الهواء، كما لو أنها تحاول أن تشرح "نظرة-بازدوف"[4] البادية عليه. كم أود أن أسمع ما رآه في الصور خلال فصل الصيف. لكن أخي خبير في الحديث بالصور. بالنسبة إليه لا يوجد شيء مباشر. "امسك الكرات عالياً، وإلا فأنت عالق". لماذا يردد هذه الكلمة كثيراً؟

- عليك إبقاء الكرات عالية، يقول روبي بصوت كأنه يأتي من خارجه، وإلا فإنك ستصبحين محاصرة.
- كيف؟
- حسنًا، يلوح بيده رافضاً، ربما فيما بعد. دلكي يدي هنا مرة. هذه هي يدي النازية.
- ماذا؟
- لا تتحدثي، فقط دليكها.
- هل هكذا مضبوط؟

---

[4] "داء بازدوف" هو المرض المعروف بتضخم الغدة الدرقية، ومن أعراضه الرئيسية جحوظ العينين (المترجم).

- لا. أقوى قليلاً. شعور غبي عندما يبدأ الجسم في التوقف والتداعي تدريجياً.

أنا ابتلع. عندما كنت طفلة كنت استطيع أن اتنفس الدموع. إلى أسفل كنا أحدق، في الأرض، وفي كل اتجاه واتظاهر وكأنني في مكان آخر. مر هذا دائماً بشكل جيد حقاً. ولكن هنا؟

- اسمع. موضوع العُثة هذا، قلتُ له.
- هممم.
- كيف حدث ذلك بالضبط؟
- أنتِ تعرفي بالتأكيد كيف كان ذلك. الأفضل أن تحكي لي شيئاً لطيفاً.

قطرات المطر على زجاج النافذة تصنع نُهيراً دقيقاً يتبدد في العدم. شيئاً لطيفاً، هذا ما يطلبه روبي. من؟ ومتى كان لأحد غيره حق في المطالبة بذلك؟ يسحب يده اليمنى ويحملها بشكل مستقيم لأعلى.

- ماذا تفعل؟
- يجب أن أذهب.
- إلى أين ستذهب الآن؟
- اتركيني في حالي. لابد وأن أذهب، لابد وأن أذهب إلى الحرب.

تباينات. يد أخي تسقط بقوة على اللحاف. نظرته المتجولة تتوقف عند النافذة. من جديد سكين الثلج، والضغط في جمجمتي، والشعور بالانزلاق بعيداً. إلى أين المهرب؟ إلى أين المهرب في العالم قبل الخسارة؟ هناك حيث كل شيء بات وشيكاً؟ هل هذا ما يقوله المرء لنفسه؟ وماذا يقول لها بعد ذلك؟ أحضرني أخي عندما علم أنه لم يبق له شيئاً ليخسره. عندما كان متأكداً من أننا لا نستطيع توضيح أي شيء. الجملة تبدو صحيحة، لكنها دون معنى. فهو يذوى حتى قبل أن يكون هناك.

- لا تفكري في ذلك، يقول روبي دون أن يتحرك، فهذا لا يجلب أي شيء. لا يجلب أي شيء لأي شخص.

يده تقتحم الفراغ. يتعرق بشدة. نُهير صغير يطفر من عينيه. خيوط رقيقة بطيئة. التنفس حشرجة. في الخلفية يصدر جهاز ما صوتاً رتيباً. لماذا هو سريع دائماً؟ سألت نفسي. ومن أين يعرف دائماً وبشكل مؤكد؟

- تبدو لي وكأنك متحيرة ومرتبكة قليلاً، تبدو لي مثلما هو الحال في الحركة البطيئة، قال وهو يلحظني بطرف عينيه مراقباً.
- الأمر ليس سهلاً جداً هنا.
- اسأليني أنا.
- لماذا لم نر بعضنا البعض لمدة طويلة؟ رددت أنا.
- كم كانت هذه المدة؟
- خمس سنوات.
- لا أعلم.
- فيما يتعلق بالعُثة، قال هو، وينبغي أن يبدو ذلك أمراً عرضياً، يمكنني أن أحكي الموضوع بشكل مختصر. في الواقع هو أمر بسيط للغاية: كان ذلك في بداية خدمتي العسكرية، في نهاية أكتوبر سنة 1985. في أول إجازة لي. كنت منفعلاً لأنني كنت قد قابلت إيما قبل أسبوع من استدعائي للجيش.
- تلك البرازيلية ذات الضفائر البرية؟
- نعم هي. في مساء أحد أيام الجمع وقفت، وكلي حماس، راكباً على وعل أبيض، أمام باب بيتنا. ضربت الجرس، ولكن لا أحد يجيب. ومفتاحي لم يعد يصلح. ولم يكن اسمنا موجوداً على لوحة جرس الباب. على كل حال لقد عشت هنا أيضاً. عندها فقط أدركت الملاحظة الملصقة على الباب، عليها بخط يد الوالد، أنني يجب أن أذهب إلى بيت الجدة. لم يشرح السبب. ذهبت إلى المدينة ووجدت نفسي على أريكة العُثة مرة أخرى. أما إيما فلم أرها. لا يوجد أكثر من هذا.

هذا غير صحيح بالطبع. هو يعلم ذلك وأنا أعلم ذلك. ولكن إذا طرحت المزيد من الأسئلة، فسوف اقتحم عالم شقيقي الخاص. وهذا ما لا أريده. ذلك ليس ممكناً. وليست هذه هي اللحظة المناسبة لذلك. لم تكن اللحظة المناسبة أبدًا، كان هناك شيئًا ما بقي يتردد في داخلي. جملة يجب على الآخرين اتباعها

لدخول متاهة اللحظات غير المناسبة. ولكن لماذا سيؤدي ذلك؟ من يريد الذهاب إلى هناك الآن؟ الأصح أن روبي يريد أن يكون لديه في رأسه قصة غير التي لدي. وهو ما كان وللمرة الأولى غير مهماً بالمرة. فقط قصصنا ليست مجرد نسخ، وإنما هي مختلفة بالفعل. فهي على كل حال مختلفة لدرجة أن الفرق لا يمكن تجاهله. بدأ سكين الثلج عمله في جمجمتي مرة أخرى. يبدو أنه عزم على الإندفاع حتى الجانب الآخر منها. ذهني يشعر أنه على الخازوق، وأنه متجمد وكأنه صنع من المعدن. يتزايد الضغط باستمرار. ولكن لا داعي للخوف، سأظل احتفظ معي بالقصة التي لم يروها أخي، القصة التي لا يستطيع أن يرويها، والتي يُعميّ عليها، وضد معرفتها بشكل أفضل. قصة عن الهروب، هروب والدينا من حياتهما المبكرة. حياة قام فيها الأب، كما يخبرنا ملفه المكون من 800 صفحة، بداية من سنة 1973 بتلقي تدريبه من قبل أمن الدولة ليكون، كما يقولون في لغتهم الخاصة، عميل إرهابي. وقد أكمل التدريب القتالي، وتعلم على دمية التدريب كيفية توجيه ضربة قاضية للناس، وقد سافر لمدة اثنتي عشر سنة تحت ثمانية أسماء مختلفة إلى ما يسمى بالدولة المعادية في الغرب[5]، وليس ببساطة بوصفه مخبراً يتبع وزارة أمن الدولة (شتازي)، وإنما كعميل خاص متميز.

في نهاية عام 1984 انتهت الخدمة العصبوية للأب فجأة. فالمخابرات لم يعد لديها أية مهمات له. في صيغتي الخاصة للقصة وقف روبي في أواخر أكتوبر 1985 على باب الوالدين. كان يريد فقط تغيير ملابسه العسكرية ببدلته "البوبر" البيضاء قبل لقاء محبوبته. لكنه لم يستطع الدخول. كان الأبوين قد تخليا عنه. كأن أخي لم يوجد بالنسبة لهما، لقد تم نسيانه. لماذا؟ قبل فترة وجيزة، كان هناك لقاء أخير للأب مع موظفي الـ "شتازي" استغرق ساعتين ونصف الساعة وفقاً لملفه: تم إنهاء خدمته، لكنه تلقى شيئاً من قبيل التعويض؛ حيث تم معه ما يسمى بالتبادل السكني، حيث تم استبدال الشقة المستأجرة في منطقة الأيل الأبيض، أي شقة طفولتنا، مقابل منزل

[5] يعني ألمانيا الغربية وكانت تعرف بالاتحادية كما هو اسم ألمانيا الآن (المترجم).

على قطعة أرض في منطقة سكسونيا السويسرية[6]. وبناء على أسباب ما، كما يحدث دائماً، كان يجب، تبعاً لهذه الصفقة، الذهاب بأقصى سرعة، لذا كان انتقال الوالدين فجأة وعلى حين غرة. فلم يكن لديهما وقت حتى لإخبار ابنهما شيئاً عن منزله الجديد، ناهيك عما كان يفعله الوالد حقيقة لمدة اثنتي عشرة سنة.

تلمس الطريق. روبي يئن قليلاً. قلق مُضطرب. نرى بعضنا كما لو أنن لن نرى بعضنا البعض مرة أخرى. لم يكن ليعرف شيئاً عن قصة العُثة التي في رأسي.

- هل ستكتبي عن ذلك؟ سألني.
- لا. لا عائلة. لا أريد. لقد قيل كل ما يمكن قوله، وكل ما رأيته صحيحاً. وأنا اسير على هذا.
- غير صحيح بالتأكيد.
- ما الذي ينقص؟
- كثير. أنا بصفة خاصة.

استراحة تلمسية دق فيها الأيفون الخاص بروبي. بقى كما هو على اللحاف. لم نقل شيئاً. أخي يهرش عنقه.

- ماذا كان هذا مرة أخرى؟ سألني.
- لا. روبي، قصتك تخصك أنت. لا بد وأن تحكيها أنت بنفسك.
- ألا ترين ما يحدث هنا. لم يعد هناك وقت لهذا.
- لا من فضلك، لن يفلح هذا. لن أستطيع.

[6] منطقة ألمانية على الحدود مع تشيكيا، كانت آنذاك تتبع ألمانيا الشرقية (المترجم).

الأدميرال الصغير

دون صور. خلف الجسد توجد الفكرة. ولكن أيُها؟ بعد أربعة أيام من ظهيرتنا تلك تم عمل قسطرة وريدية لتعذية روبي أثناء وجوده في وحدة الرعاية التلطيفية. "لن يكون هناك المزيد من البلع" كما قال لي على الهاتف. وبعد يوم واحد عاد إلى المنزل. وقد عارض الأطباء ذلك بشدة، لكنه أصر على ذلك. أجلس إلى جوار سريره كلما كان ذلك ممكناً. لم يعد هناك شيئاً غامضاً وغير محدد. الإرهاصات واضحة. لكنه حكم العادة والألفة. وها هو ذا. كيف يمكن للأمرين أن يكونا حاضرين في الوقت نفسه، كنت أفكر: هذا الذي اعتدناه دوماً، وهذا الذي يتقدم دوماً نحو الأبدية. أخي يرقد في غرفة المعيشة. في مجال رؤيته توجد شجرة أعياد الميلاد، وخلفها الشرفة، والمطر على النافذة، والأشجار الجرداء العارية في الشارع. وعلى يمين سريره رف كبير للكتب.

ينام في الغالب، يستفيق قليلاً، ثم يدخل في غيبوبة. الثاني عشر من ديسمبر، الرابع عشر من ديسمبر، السابع عشر من ديسمبر. أوقات ما بعد الظهيرة، التي يكون الصمت فيها فقط لمحاسبة النفس. ساعات طويلة ولا علامة من جانبه. فقط جسده الوحيد، والغرفة، وسكين الثلج في جمجمتي، لمرة واحدة توقف عن إصدار صوت التدبيس. في وقت ما استيقظ روبي، أومأ لي بعينه، وسألني بفم جاف: هل معك توت بري؟ - خمسة أطباق، منتقاة بعناية من الـ "كاديفي"[7]. لم يبد أي رد فعل. لا يستطيع أكل التوت البري بعد الآن. لا يستطيع على الإطلاق أكل أي شيء بعد الآن.

"بالكاد لم تعد لدي أية صور ذهنية، قال. إنما؟ - لا أعلم. الكثير من البياض. لا أدري كيف. فراغ كبير". شعرت باحتياج مفاجئ لاستنقاذه، ونقله بعيداً، نقله إلى مكان يكون كل شيء فيه جيداً له. الاحتياج المفاجئ لالتقاط صورة،

---

[7] الـ"كاديفي" (KaDeWe) اختصار اسم متجر "كاوفهوف الغربي" (Kaufhaus des Westens) وهو متجر ألماني فخم (المترجم).

أن امسك بأخي، احمي نفسي من البعد اللحظي. كيف يمكن أن نكون ضد شيء ما بكل جوارحنا ويحدث رغم ذلك؟ "لم يتبق شيء"، يقول روبي. سكين الثلج يعلن عن عودته. "هل يمكنني؟" سألته وسحبت هاتفي الأيفون من الشنطة. نظر إليّ طويلاً ثم أكد.

- لا يزال لدي كتابك "الغرفة المضيئة" قال روبي.
- نعم.
- في النهاية، كان من الجيد أنك كنت في الغرب. أخيراً حصلت على كتبك وكل ما بقي منك؟ رولان بارت والأم المفتقدة. هذه الأشياء فقط.

"الغرفة المضيئة". هذا الكتاب الذي كنت، في نهاية دراستي، دائماً ما اضعه في جيب معطفي "الباركا" الطويل. اليوم لم أعد أعرف شيئاً عن هذا، فقط أن داخله كان يتوهج بطريقة غامضة، وأن الأمر كان دائماً يتعلق دون كلل بالهالة والسحر والضوء ومثل هذه الأشياء، وأن رولان بارت لم يكن يبحث عن التعزية والسلوى. لم يكن يريد أحداً. الأم ينبغي أن تبقى النجمة الثابتة والهادية، ولا يمكن مقارنة أحد بها. بارت نظر دون ملل أو كلل إلى الصور. المخيال يمسح ضوئياً كل تفاصلة. لكن في داخله لم يعد هناك وقت.

روبي ذهب بعيداً في غيبوبته. أمسكت بيده، وحاولت الحديث، وأن اتحدث معه. ربما يسمعني. نعم. ابدأي، بأي شيء، وبهدوء، فقط هكذا. من أكوام الأوراق المحترقة في حديقة طفولتنا، فشل عملية البحث عن البيض في عيد الفصح، رائحة الكستناء الحلوة في المقلاة. كنت أحاول جاهدة أن أجد صوراً تجمعنا معاً، صور صنعتنا معاً. صور لا تتعلق بالذكريات بقدر ما تتعلق بإيجاد جملاً وعبارات تربط، تصنع شيئاً ما، توقف الانتظار المتوتر لبعضنا البعض، هذا الذي ربما لا يشعر به أحد إلا أنا فقط.

معالم الطريق. مات روبي في السادس من يناير سنة 2018. كان لدينا شهر واحد بالضبط لنودع بعضنا البعض. ثلاثون يوماً. لا أكثر ولا أقل. ما أن استلقى في غرفته بمدينةدريسدن وأنا أعرف ما يجب عليّ القيام به. ركبت السيارة ودهبت إليه. في بعض الأحيان كانت هناك ثلوج على أشجار بمحاذاة

الطريق السريع، أحياناً كنت انظر إلى سماء الشتاء الرمادية، التي كانت تمطر أحياناً، وفي بعض الأحيان كان هناك ازدحام مروري. مرة سمعت من راديو السيارة تقريراً إذاعياً عن الصحراء وكيفية معرفة الاتجاهات فيها. يجب على المرء أن يسأل البدو، هذا ما قيل. وعلى المرء كذلك تعلم قراءة العلامات. معالم خاصة، على سبيل المثال، مجاري المياه، هياكل الجمال العظمية، جذوع الأشجار اليابسة. حتى حطام السيارات أو الإطارات القديمة يمكن أن تعطي معلومات عن الطريق الصحيح. خلال الأسابيع الأربعة الماضية، لم أر علامة واحدة، ولم يكن لدي أي فكرة عن مكاني الذي أنا فيه. ومع ذلك فقد وصلت حيث يجب أن أكون، مع أخي.

السادس من يناير سنة 2018 كان يوماً كثير الرذاذ. معتدل نعم ولكنه غائم متعكر. سافرت الى درسدن كي أودع أخي. كان يرقد في سريره ويبدو جميلاً. شاباً، نال خلاصه، يكاد يكون بلا جسد. شفتيه مفتوحتان، كما لو كان يريد أن يسأل شيئاً بمناسبة الوداع. في الأسابيع التي قضيتها بجانب سرير مرضه، بدا لي وكأن الوقت قد ضل طريقه. فقط كنت اجلس هناك وانظر في وجهه. في بعض الأحيان كنت اتحدث قليلاً. في وقت ما، فتح عينيه وقال: "عندما كنت طفلاً صغيراً، كانت لدي دائماً مشاكل في أذني". أو: "سفننا لا تستطيع التقدم أكثر". أو: "ريش، أريد ريشاً". أو: "بيت الـ"شتازي" دائماً ما كانت مياه المطر تتسرب إليه". فكرت في جوقة موسيقية تتقرفص في المنخفض الموجود بين المسرح والجمهور، لكنها لا تستطيع أن تستجمع قواها لتبدأ العزف. فقط صوت بين حين وآخر، عبارات غير متقنة، ونهايات فضفاضة. إبان ذلك لم أشعر قط أن عبارات روبي غير مترابطة. بل ظننت أنني أدركت النمط الذي تسير عليه. ولكن هذه كانت نغمته الأخيرة. ولا ينبغي أن تبقى النهاية مفتوحة؟

رغبة مكبوتة. عندما عدت إلى المنزل ليلاً من زياراتي إلى دريسدن، جلست على الكمبيوتر وبحثت في جوجل. ألم يكن هناك حقًا ما يمكن أن ينقذه؟ الورم الأرومي الدبقي متعدد الأشكال هو الورم الخبيث الأكثر شيوعاً الذي يصيب المخ. الورم الأرومي الدبقي يتطور من المادة البيضاء للدبق

العصبي. الورم الأرومي الدبقي يسمى أيضاً بورم الفراشة وذلك بسبب شكله. الورم الأرومي الدبقي عندما ينمو يكون متغلغلاً ومنتشراً. يتسم الورم الأرومي الدبقي بمظهره المتنوع وغير المتجانس. يتضاعف حجم الورم الأرومي الدبقي مرة كل 50 يوماً. الورم الأرومي الدبقي هو الأكثر صعوبة في علاجه. متوسط البقاء على قيد الحياة بعد تشخيص الإصابة بالورم الأرومي الدبقي هو 14,6 شهراً. العلاج النهائي للورم الأرومي الدبقي غير ممكن حتى الآن.

خبيث، غير متجانس، منتشر، متغلغل، مُستعص. الشيء الوحيد الذي بقي في ذهني هو كلمة الفراشة. فرأيتني وروبي في حديقة طفولتنا. أخي جاء مباشرة من حصة البيولوجيا، وكان عليه تبعاً لذلك أن يتخلص من شيء ما. أراني البيض الملتصق بشجرة البرقوق القديمة، ويرقات اليُسروع، وشرنقاتها، ثم فراشات الأدميرال الأحمر السمينة يجلسن في نَهَم على النباتات الشوكية المزهرة. على الأرض جلس يُسروع فقس حديثاً، منفوش الشعر جداً يرتجف. "سننقذه"، صرخ روبي، وصفق بيديه. وركضت أنا لأحضر وعاءً من ماء السكر ونقطُت له قليلاً أمام وجهه. قام الأدميرال الأحمر الصغير بتنظيم أجنحته الخاصة بعناية، وأدخل خرطومه في الماء، يحتاج لبعض الوقت، رفرف وطار ثم هبط بسهولة ويسر إلى جوار الآخرين.

كانت الفراشة في رأس أخي لتسعة أشهر فقط[8]. أجلس إلى جوار سريره وأعيد التفكير في الأسابيع الأربعة الماضية: كيف أن شيئاً ما بداخلي، صلباً لا يلين، يقول لي أن ما حدث مع روبي، سوف ينتهي بأن يخرج منه مثلما يخرج الأدميرال الأحمر الصغير من شرنقته. لم يكن بوسع الأطباء إلا أن يجدوا التفاصيل التي تنقذه. غير أن المعجزة لم تقع. لم يسمح له، لم يكن ممكناً، كان يجب منعه. ما هذا حقيقة؟ سألت نفسي. أهو نوع من الجنون؟ صدمة مشلة؟ محاولة الهرب من الإحساس بالعجز؟ إنكار كامل؟ "الخوف"، كما يقول سيغموند فرويد، "يناظر شوق مكبوت ولكنه ليس هو نفسه هذا الشوق؛ فالكبت وجد أيضاً ليعني شيئاً ما". لأجل ماذا؟

---

[8] تعني بالطبع ورم المخ الخبيث الذي يشبه الفراشة شكلاً (المترجم).

يدا روبي باردتين. لأي درجة يموت المرء عند موته مباشرة. أحسب الأيام مرة أخرى واسمي الشهر الماضي بـ"حالة الطوارئ". ولكن ما اسم الوقت الآن؟ كيف يسمي المرء الاستثناء الذي اصبح قاعدة، لأنه توجب عليه أن يصبح كذلك؟ استيقظ وأتوجه إلى النافذة الكبيرة التي رأى أخي، في الأسابيع الأخيرة، من خلالها، آخر أدفنت[9] سماوي له. يتم التخلص من شجرة الميلاد، التي علقت عليها الزينة التي تعود لطفولتنا. كما لو أنه تم الحفاظ على شيء ما في هذه الغرفة، كنت افكر. في هذا التكديس العجيب لأشياء تلتصق بها الكثير من المشاعر القديمة. أخذت الزنجي الصغير في يدي، رجل البخور من الأيام المبكرة جداً. بقايا من الأدفنت. من المدهش جداً أنه لا يزال موجوداً. ربما يوجد في رغبة روبي في الاحتفاظ بالكراكيب شيء من قبيل التماسك، لون من تثبيت طابع عصر ما، تم الانسلاخ عنه منذ فترة طويلة، ومن الآن فصاعدًا سوف ينتمي إلى نفسه فقط.

غير قابل للكسر. جسده كم هو مألوف بالنسبة إليّ. مثل جسدي. وراء الجسد الفكرة. ولكن ما الذي يجب أن أفهمه هنا، ما الذي لم يكن موجوداً على أي حال؟ "كلٌ واحد لابد وأن يكون بمفرده تماماً خلال موته" كتب إلياس كانيتي. ولذا فنحن هنا لمرتين، مرة واحدة في الحياة ومرة في الموت. وحدة مضاعفة. وهذا أمر ليس بالسهل تحمله، كما أعتقد. أتذكر اللحظة التي قابل فيها روبي الموت للمرة الأولى. ربما كان في الخامسة من عمره. كان الوقت شتاءً. كنا بمفردنا في الشقة، صنعنا لأنفسنا شيئاً نأكله وجلسنا على طاولة المطبخ. فجأة نظر إليّ أخي بعيون ضخمة جاحظة، قفز لأعلى، مرق من كل الأبواب وصفقها بقوة وبالترتيب، وأضاء النور في كل غرفة، ركض عبر الحجرات دون تنفس. ركض وركض حتى وقف أمامي مرة أخرى وصرخ: "من هو هذا الموت؟ هل سيأتي ليأخذني؟ أين يجب أن أذهب إذا كان واقفاً

[9] كلمة أدفنت (Advent) أصلها يوناني وعنت بداية اعتلاء أحد القياصرة لعرشه أو مجئ أحد الآلهة إلى هيكله يوم عيده السنوي، وبعد تنصير الإمبراطورية أصبحت تعني المجيء الثاني للمسيح. وفي أوربا اللاتينية تطورت الكلمة لعبر عن الاستعداد لعيد الميلاد، ويكون ذلك بأشياء عدة منها إشعال أربع شمعات في دائرة قد تكون معدنية مزينة بفروع شجرة التنوب أو الصنوبر وتسمى هي أيضاً بالأدفنت (المترجم).

أمامي؟ هل تزورينني آنذاك؟" كيف ارتعد جسده الصغير، وكم كان خوفه كبيراً، وكيف تمت تهدئته دون أي شيء.

كيف اتركه الآن ليذهب؟ لماذا؟ ماذا ينبغي أن يحدث الآن بدونك؟ الأخت روزا من فريق الجسر وقفت قرب رأس روبي، وسألت عما إذا كنت أريد قهوة. يتنفس، وأقول وأنا اشير إلى صدره "إنه يتحرك. استطيع أن أرى ذلك. إنه حي. الزعم بأنه ميت خطأ بالتأكيد. وعلى أي حال كل شيء هنا خاطئ"، فأومأت هي برقة وقالت شارحة: "لقد تنفس دائماً، لذا يستمر في التنفس بداية. وهم بصري ينتهي بعد بضع ساعات". أفكر كم هو وحشي ومتحضر في الوقت نفسه هذا الموت. إنه يسمح لروبي بالتنفس، حتى يُسمح للجميع من حوله باستيعاب الأمر. السماء أمام النافذة، الهيرنهوتي، الذي يواصل الإضاءة، آخر منشفة له، الزنجي الصغير. ربما الموت مجرد موجة. في البداية مات أخي في سريره، ثم في غرفته، وفي وقت لاحق كان الموت الكبير والكلي في الشارع.

تطلعت في وجهه. هل يوجد فيه اليوم شيء لم يكن هناك من قبل؟ شيء مخفي، ذو علامة وأثر؟ لا أرى شيئاً على الإطلاق. كل شيء أملس ومستوٍ تقريباً. وكأن الكيمياوي أحرق سنواته أيضاً. كم كان شاباً. إذن يموت المرء تماماً مثل ذلك، كما تقول الأبحاث، والأمر كله ليس سوى صدفة، هي تعسف محض. أم أنه وجدت لحظة حاسمة أثارت التأزّم في رأس روبي؟ أين كانت بدايتها إذن؟ "الروابط المباشرة لا توجد أبداً" كما تقول انجبورج باخمان. إذن توجد روابط غير مباشرة. أرى الأدميرال الأحمر الصغير أمامي، كيف كان يقوم بدوراته البيضاوية في حديقتنا، كيف يحاول الابتعاد عن حقل النباتات الشوكية المزهرة، وكيف تمكن للمرة الأولى من الوصول للزنبقة الأولى ليتهاوى مرة أخرى، إلى منزله. الألوان، والصمت، ضوء اللحظة الذي أراه وأخي، أشقر، لطيف، رقيق للغاية.

مشهد جديد. موضوع الأدميرال يخصنا. الشيء عن ماء السكر يخصنا. أن روبي اكتشف لماذا تتجنب الفراشة الظل فأمر يخصنا أيضاً. أن الجدة أخبرتنا كيف أن الطيور التي تطير فجأة وبطريقة عفوية تدافع عن الأرواح،

وتساعد الموتى على التحدث إلى الأحياء، هذه الحكاية تخصنا أيضاً. أخي لم يكن يهتم بالروح. هو أراد فهم نظام الظل للفراشات، وكان يركض بشكل جامح خلف فراشة الأدميرال الصغير. في وقت لاحق، صعدنا الدرج، وهنا أصيب بالذعر. في رأسي، كانت الفراشات على مر السنين هذا أولاً، ونوبة ذعر أخي هذا آخراً. مشهدان لا يرتبطان ببعضهما البعض، لا صلة بينهما.

الآن، بجانب سريره، يمتزج المشاهدان معاً ويصبحان مشهداً واحداً. المشهد جديد، وهو يسير على هذا النحو: روبي يريد أن يظهر لي أين يذهب الأدميرال الصغير للنوم في المساء. نهرول إلى المنزل. جائعون. نجلس على طاولة المطبخ. بدأنا الحديث عن كل شيء يخطر ببالنا. قلت أن جدنا توفي بالأمس. أوتو، والد أمنا. لا توجد لحظة أولى. لماذا أنا متأكدة لهذه الدرجة من أن هذه هي البداية؟